الفصل التاسع

وقف حرب الاستنزاف

- استعداد مصر لتحمل الثمن كان تعبيرا عن الإصرار على رفض الأمر الواقع الاسرائيلى
- تقرير المخابرات الإسرائيلية يقول:
  عبد الناصر يغلق الحجرة على نفسه كل يوم لدراسة كل التسجيلات العسكرية الإسرائيلية
- مصر ترفض مشروعا أميركيا بانسحاب إسرائيل الكامل من سيناء وغزة لأنه حل منفرد.

أدركت مصر أن مهمة جونار يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ تدور فى حلقة مفرغة، لذلك كانت الأولوية المطلقة من وجهة النظر المصرية فى تلك الفترة هى تعديل الخلل العسكرى القائم منذ حرب يونيو، وكان جمال عبد الناصر فى القاهرة يعمل ١٨ ساعة يوميا لمتابعة التجهيزات العسكرية الجديدة. وسجلت تقارير المخابرات العسكرية الإسرائيلية أنه: «فى خلال ستة شهور من حرب يونيو وجدت إسرائيل أمامها على الضفة الغربية لقناة السويس جيشا مصريا جديدا يعادل تقريبا حجم الجيش الذى واجهته إسرائيل فى ٥ يونيو. وأصبح على إسرائيل أن تواجه هذا الجيش الجديد أمامها عبر قناة السويس. إن هذه الولادة السريعة كانت مجرد الفصل الافتتاحى فى عملية انشئت مصر فى نهايتها جيشا يبلغ حجمه ثلاثمائة ألف جندى، وبمجرد أن تلقت مصر المعدات الملائمة بدأ المصريون فى إغارتهم المحدودة- ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء- فى ١٩٦٨، والتى تطورت الى إعلان حرب الاستنزاف».

وكانت إسرائيل قد أصبحت مستفيدة من المزايا العسكرية الذى حققها الأمر الواقع الجديد فى الجبهة المصرية بعد حرب يونيو. ففى الطيران مثلا كانت «المسافة بين المطارات المصرية ومراكز السكان الإسرائيلية تبيح لإسرائيل فترة إنذار اليكترونى تعادل أربع دقائق، والأن بعد أن أصبحت القوات الإسرائيلية على حافة قناة السويس ارتفعت تلك الفترة الإنذارية إلى ١٦ دقيقة».

مع ذلك فإن تلك الحقيقة العسكرية الجديدة أصبح لها وجه آخر. فبعد أن أصبح معظم الجيش المصرى مرابطا فى الضفة الغربية لقناة السويس فى اشتباك بالمدفعية وإغارات القوات الخاصة عبر القناة، فان هذا الالتحام المباشر يمكن المصريين فى اللحظة المناسبة من التحرك إلى الهجوم الشامل فى «أقصر وقت ممكن».

ومع شهر نوفمبر سنة ١٩٦٨، بعد سنة ونصف من حرب يونيو ١٩٦٧، أصبح المصريون الذين أعادوا إنشاء جيشهم وأعادوا تسليحه من الاتحاد السوفيتى. يحسون بأنهم وصلوا إلى درجة من القوة تسمح لهم بشن حرب استنزاف كبرى. فى هذا الشهر شنوا هجوما ضخما بالمدفعية على القوات الإسرائيلية التى فاجأها الهجوم.. وسقط ١٨ إسرائيليا قتلى. وكان رد الفعل الاسرائيلى هو شن هجوم بقوات الكوماندوز فى العمق «المصرى» فى نجع

حمادى بوادى النيل، مدمرين بعض المنشآت الكهربائية. وبما أبرز للمصريين ضعفهم الأساسى أمام هجوم تقوم به قوات إسرائيلية متحركة. إن صدمة هذا الهجوم أقنعت الرئيس جمال عبد الناصر بأنه ليس. بعد، كامل الاستعداد. ومن ثم قام بتأجيل حرب الاستنزاف حتى شهر مارس ١٩٦٩، وخلال فترة التقاط الأنفاس التى أدى إليها قراره. ركز الإسرائيليون كل جهودهم فى إقامة خط «دفاعى» يكون هو الإجابة التى تتطلبها مثل هذه الحرب «.. وهو ما سمى فيما بعد بـ» خط بارليف.

الواقع أنه من وجهة النظر المصرية فقد كانت المهمة العاجلة فى إعادة بناء القوات المسلحة هى أولا إعادة بناء خط دفاعى قوى فى الضفة الغربية لقناة السويس. ولم يكن هذا يتم فى ظروف عادية. فإذا كانت مصر تعد جيشها لتحرير سيناء بقوة السلاح. فإن إسرائيل تريد أيضا إصابة مصر أولا بأول باليأس الكامل من إمكانية الحل العسكرى. وهكذا سارت المرحلة الأولى من حرب الاستنزاف المصرية بجولات. وجولات مضادة. تعبر عن الهدف السياسى المتناقض لكل من الطرفين.

لقاء عبد الناصر وبودجورنى

وكانت نقطة الضعف البارزة الأولى التى تعانى منها مصر من البداية هى أن سماء مصر أصبحت مفتوحة تماما أمام الطائرات الإسرائيلية بعد أن خرجت من حرب يونيو بمطاراتها العسكرية مدمرة وشبكة إنذارها الجوى محطمة بالكامل. وفى مباحثات عبد الناصر مع الوفد السوفياتى برئاسة بودجورنى، قال لهم بصراحة فى جلسة ٢٢ يونيو ١٩٦٧: «إن مهمة إخراج إسرائيل من سيناء هى مسئوليتنا بالكامل وليست مسئوليتكم. أما الدفاع الجوى عن أراضى الجمهورية فهذا ما نطلب مشاركتكم فيه». ولكن السوفيات ظلوا مترددين تماما بشأن المخاطر الدولية لمثل تلك المشاركة. بحيث إنهم لم يتخذوا بشأنها قرارا حاسما إلا بعدها بسنتين ونصف السنة.

وأصبحت إسرائيل تلمس من تطور العمليات العسكرية المصرية أداء عسكريا مصريا جديدا ومختلفا بالمرة. لم تكن تتوقعه بمثل تلك الكفاءة المتزايدة فى مثل هذا الوقت القصير.

وكان من بين التفسيرات التى وضعتها المخابرات الإسرائيلية: «إن تصميم جمال عبد الناصر على أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة قد قوى من قيام السوفيات بإعادة بناء قواته وتقديم الدعم الضرورى لتحقيق ذلك. وهكذا ففى أعقاب حرب ١٩٦٧ مباشرة بدأ

جمال عبد الناصر فى دراسة أسباب النجاح الاسرائيلى، وخلال فورة النصر فى إسرائيل أذاع كل القادة الإسرائيليين وصفا لانتصاراتهم فى المعركة، وجاء ناصر بتسجيلات لكل ما أذيع، وأغلق على نفسه حجرة، وظل يستمع إليها لأيام طويلة حتى يقوم بتقييم العوامل الرئيسية التى جعلت من الجيش الاسرائيلى تلك القوة الضاربة الفعالة».

وبصرف النظر عن صحة أو عدم صحة هذا التفسير، فإن دراسة أسباب هزيمة ١٩٦٧ والاستعداد للمواجهة العسكرية الحتمية القادمة، كانت مهمة جميع القيادات فى تلك الفترة، من جمال عبد الناصر إلى أصغر جندى فى القوات المسلحة، ولم تكن حرب الاستنزاف التى شنتها مصر ضد الاحتلال الإسرائيلى بلا ثمن، ولكن استعداد مصر لتحمل الثمن كان بدوره تعبيرا عن الإصرار الصلب على رفض الأمر الواقع الاسرائيلى، وفرض أمر واقع مضاد بقوة السلاح.

الانهيار الذى لم يحدث

وكان كل هذا يجرى فى ظل ظروف سياسية واقتصادية صعبة.. أعطت أساسا لكى تقامر السياسة الاميركية فى تلك الفترة على انهيار مصر من الداخل، إن لم يكن لأسباب عسكرية وسياسية، فعلى الأقل لأسباب اقتصادية.

ويتذكر الدكتور محمد حسن الزيات، وكان يشغل فى تلك الفترة منصب المتحدث الرسمى المصرى المكلف بشرح موقف مصر للصحافة الأجنبية أولا بأول، أن مراسل جريدة «النيويورك تايمز» فى القاهرة صارحه ذات مرة وهو يقول له بين الجد والهزل: «أرجوك يا دكتور.. لقد أرسلنى رؤسائى إلى القاهرة لكى أتابع مظاهر التململ بين الرأى العام المصرى من أعباء الحرب.. فإذا أصبحت أنا أول من ينشر خبر انهيار مصر من الداخل وقبولها لطلبات «الرئيس» جونسون فإن هذا سيضمن لى أكبر ترقية صحفية فى حياتى».

رسالة إلى الملك فيصل

فى تلك الفترة كانت السعودية تحاول استخلاص موقف محدد من الولايات المتحدة الاميركية للالتزام بالانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية، وخصوصا بالنسبة للضفة الغربية المحتلة، وهكذا تلقى الملك فيصل فى ١٢ ابريل ١٩٦٨ مذكرة من السفير الاميركى بالسعودية تقرر أن الولايات المتحدة تتعهد: «بالتأييد الدبلوماسى والسياسى

الكامل لقرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧... وهى تؤمن بأن يقدم الأساس الذى يحقق السلام بشرط أن تخلص جميع الأطراف فى تطبيق القرار بنصة وروحه» و«معنى القرار واضح: ففى مقابل الانسحاب الاسرائيلى يجب أن يكون هناك اتفاق بشأن حالة السلام Agreement on a stare of peace تقوم على المبادئ التى أحتواها قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر».. و«أن نفوذ الولايات المتحدة يمكن أن يستخدم بطريقة أفضل إذا حدث تقدم نحو التسوية، ويفضل أن يكون ذلك تحت إشراف السفير يارنغ».

أما بالنسبة للانسحاب الإسرائيلى، وهو ما تود السعودية أن تعرفه، فإنه: «مازال موقفنا من الانسحاب هو ما سبق أن عبرنا عنه للملك حسين فى نيويورك فى ٣ نوفمبر ١٩٦٧، وهو فى حين أننا لا نستطيع ضمان أن كل شىء يعود للأردن أو أن بعض التصحيحات الإقليمية لن تكون مطلوبة لإقامة الحدود الدائمة، إلا أننا مستعدون لاستخدام نفوذنا للوصول إلى أفضل الترتيبات الممكنة للأردن».. و: «فى حين أنه يجب أن يكون هناك انسحاب للقوات (الإسرائيلية) فإنه يجب أن تنسحب إلى حدود آمنة ومعترف بها، وليس بالضرورة إلى خطوط الهدنة القديمة وغير المناسبة ; Rather than necessarily to the old and inadequate armistice lines.. و: «يجب أن يكون هناك مع ذلك تصحيحات تعويضية نتيجة التغيير فى هذه الخطوط، ونحن نؤمن بأن هذه التصحيحات يجب أن تكون فى الحد الأدنى المناسب للأمن المتبادل والمبررات الاقتصادية». We believe these adjustments must be the minimum compatible with mutual security and economic needs، ثم: «إن مستقبل القدس يجب ألا يحدده إجراء إسرائيلى انفرادى، ولكن يجب أن يحل بطريقة مرضية لمصالح الأديان الثلاثة والمجتمع الدولى، ونحن مستعدون لاستخدام نفوذنا بهدف إعداد تسوية واستطلاع لترتيبات يمكن القيام بها لحماية المصالح الدولية، ومن أجل دور سياسى واقتصادى ودينى مناسب تقوم به الأردن فى المدينة المقدسة».

انسحاب كامل من سيناء

وقد مضى شهر نوفمبر من قبل، والآن يمضى شهر أبريل من عام ١٩٦٨، والولايات المتحدة لا تتحرك حتى لتنفيذ تلك التعهدات المراوغة بشأن الضفة الغربية والقدس، لكن الشىء الوحيد المحدد الذى كانت إدارة الرئيس جونسون مستعدة لتقديمه، كان يتعلق

بسيناء والأرض المصرية.. فقط. وهكذا اجتمع دين راسك وزير الخارجية الأميركى بمحمود رياض وزير الخارجية المصرى فى نيويورك فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩٦٨ ليقدم إليه مشروعا أميركيا من سبع نقاط هى:

١ - انسحاب إسرائيل من الاراضى المصرية بالكامل.

٢ - إنهاء حالة الحرب بين مصر وإسرائيل.

٣ - يتبع ذلك فتح قناة السويس للملاحة الإسرائيلية.

٤ - حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على أساس سؤال كل لاجئ بطريقة سرية وبصفة شخصية عن مدى رغبته فى العودة إلى إسرائيل، وفى حالة رفضه فله أن يختار أى بلد يريد أن يذهب إليه دون أن يشكل هذا ارتباطا مسبقا على تلك الدول.

٥ - تواجد قوات دولية فى شرم الشيخ، على ألا تنسحب إلا بقرار من مجلس الأمن أو الجمعية العامة.

٦ - تفهم حول مستوى التسلح فى المنطقة.

٧ - توقيع مصر على وثيقة تتضمن هذه الالتزامات، وكذلك إسرائيل.

وبداية كان هناك شك فى الظروف التى تقدم من خلالها إدارة جونسون هذا العرض، ففى التاسع من أكتوبر أعلن الرئيس جونسون عن موافقته المبدئية على إمداد إسرائيل بطائرات فانتوم أميركية لأول مرة، وتمثل الفانتوم فى ذلك الوقت أحدث الطائرات المقاتلة القاذفة الاميركية ذات الإمكانيات المتطورة والمدى البعيد الذى ينطلق بسيطرة إسرائيل الجوية إلى آفاق جديدة تدعم استمرار احتلالها للاراضى العربية، وكان طبيعيا أن يتصاعد هذا بمستوى الغضب ضد الولايات المتحدة فى أنحاء العالم العربى، «وأملاً فى احتواء ردود الفعل العربية السلبية لصفقة الفانتوم» جاء اجتماع دن راسك بمحمود رياض وتقديمه هذا العرض المحدد.

اجتماع راسك ورياض

وبمجرد أن تقدم دين راسك بعرضه الرسمى هذا، قال له محمود رياض: «إن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يقضى بانسحاب إسرائيل من كافة الأراضى العربية المحتلة وليس من الأراضى المصرية وحدها.

وأجابه دين راسك قائلا: إننى الآن أتحدث مع وزير خارجية مصر...

قـال محمود رياض: هذا صحيح، ولكن التزاماتنا العربية تحول دون أن ندخل فى أى حل منفرد مع إسرائيل، تاركين الأردن وسوريا خلفنا.

رد وزير الخارجية الاميركى بقوله: إننا نرى أن على كل دولة عربية أن تستقل بنفسها فى مناقشة موقفها بدون أن تربط موقفها بالدول العربية الأخرى. ففى هذه الحالة نستطيع أن نعالج كل مشـكلة على حدة. فيكون هناك حل مصرى اسـرائيلى، وأردنى اسرائيلى. وسورى اسرائيلى، وهكذا. فعندما نجمع الحلول الثلاثة معا فى النهاية نكون قد وصلنا إلى التسـوية الكاملة، لقد بدأت الاتصالات بكم لأن إسرائيل لا ترغب فى الاحتفاظ بالأراضى المصرية، بالنسـبة للأردن فهو قادر على أن يتكفل بنفسـه، وقد كان من الممكن أصلا ألا يواجه الأردن مشكلته الحالية لو أنه امتنع عن التدخل فى يونيو ١٩٦٧.

وهنا قاطعه محمود رياض قائلا: إنه سـوف يكون عملا غير أخلاقى من جانبنا لو أننا ركزنا الحل على الانسحاب الاسرائيل من سيناء وتركنا وراء ظهورنا باقى الأراضى العربية المحتلة، وأحب أن أذكرك بان الأردن وسـوريا قد دخلتا الحرب بعد أن بادرت إسرائيل فعلا بالعدوان على مصر فى ٥ يونيو ١٩٦٧، ولذلك فإنه من غير المقبول أن نسعى لإيجاد حل لأنفسـنا مع إسـرائيل وترك الآخرين، لقد قلنا للملك حسـين إنه يسـتطيع ألا يقيد نفسـه بنا، ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقبل لأنفسنا التحلل من التزاماتنا للدول العربية.

قال دين راسك: ولكنى أتيت لكِ بانسحاب كامل من الأراضى المصرية..

رد محمود رياض: لا خلاف حول أهمية انسـحاب إسـرائيل من سـيناء، وهذا يفرضه عليها اتفاق الهدنة الذى وقعته معنا فى سنة ١٩٤٩ وقرار مجلس الأمن فى نوفمبر ١٩٦٧؛ واعتراضى ينصب فقط على مطالبتنا بإنهاء حالة الحرب من جانبنا بينما القوات الإسرائيلية لا زالت تحتل الأراضى العربية، ونحن على اسـتعداد لإعلان إنهاء حالة الحرب بمجرد انسحاب إسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة؛ فإلى جانب الاعتبار الأخلاقى هناك التزام قانونى تقتضيه اتفاقية الدفاع المشترك بيننا وبين بقية الدول العربية.

قال دين راسـك: إننى نيابة عن الولايات المتحدة أسـتطيع أن أتقدم باقتراح مماثل إلى الأردن، ولكننا لا نسـتطيع أن نفعل نفس الشـىء مع سوريا طالما أنها ترفض قرار مجلس الأمـن، على أية حال، لماذا لا ترسـل لى ردك على مقترحاتـى فى مذكرة بعد عودتك إلى القاهرة، يمكنك أن تضيف على النقاط السبع أى نقاط تقترحها..

ويبدو أن دين راسك كان يأمل فى تغيير محمود رياض لموقفه بعد أن يعود إلى القاهرة ويعرض المشروع على الرئيس جمال عبد الناصر، لذلك كرر طلبه بتلقى رد مكتوب منه بعد عودته إلى القاهرة.

اجتماع مغلق برئاسة عبد الناصر

وفى القاهرة كان جمال عبد الناصر يحضر اجتماعا مغلقا للجنة المركزية للاتحاد الإشتراكى جرى فى السادس من نوفمبر ١٩٦٨، ومحضره «سرى للغاية». إن عبد الناصر شرح للمجتمعين أبعاد الموقف السياسى وتناول العرض الأمريكى الجديد ورد دين راسك عليه طبقا للبرقية الواردة من نيويورك.

وطبقا لمحضر الجلسة، علق جمال عبد الناصر بقوله: « لو ركزنا الحل على انسحاب إسرائيل من سيناء، وتركنا وراء ظهورنا باقى الأراضى العربية المحتلة.. فإنه يعتبر خيانة منا لأشقائنا العرب. ووزير الخارجية «محمود رياض قال لدين راسك إننا أوضحنا للملك حسين أنه يستطيع أن يحل مشكلته (بشأن الضفة الغربية) إذا شاء دون أن يقيد نفسه بنا، ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نحل أنفسنا من التزاماتنا إزاء الدول العربية».

وأضاف جمال عبد الناصر قائلا: «كنا قد طلبنا من الملك حسين أنه ما يقطعش علاقاته مع الولايات المتحدة الاميركية، وبعد زيارته الأولى لنا هنا قلنا له: إنه يستطيع أن يتخذ أى خطوة من الخطوات مع أميركا فى سبيل حل مشكلته والجلاء عن الضفة الغربية، وقلنا له: إن أحنا ها نؤيد هذه الخطوات ولن نقف ضده.

«وسافر الملك حسين إلى الولايات المتحدة وقابل جونسون مرتين وتكلم معه، وبين له أنهم ماشيين مع الغرب ومع السياسة الغربية، ولكن كل هذا لم ينفع فى أى شىء، وأميركا مشيت فى سياستها اللى هى تبنى كامل لسياسة إسرائيل».

وقال جمال عبد الناصر: إن مصر قبلت قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لسبب أساسى وهو حاجتها إلى الوقت اللازم لإعادة بناء القوات المسلحة ولكنه شخصيا لا يؤمن بجدوى ذلك القرار لان اللغة الوحيدة التى تفهمها إسرائيل هى القوة.

وأضاف جمال عبد الناصر قائلا: «فى الحقيقة إن أحنا ملتزمين على أساس أننا لا يمكن أن ننهى حالة الحرب (مع إسرائيل) طالما أن هناك شبر من الأراضى العربية محتل باسرائيل، وحتى لو تعهدنا أمام مجلس الأمن بإنهاء حالة الحرب سيكون معلقا بالجلاء

الكامل أو الانسحاب الاسرائيلى الكامل من كافة الاراضى العربية المحتلة بما فى ذلك القدس، طبعا هذا الكلام تعرفه إسرائيل لان أحنا قلناه لبارنج».

أما بالنسبة لما ينص عليه القرار ٢٤٢ فمن حق كل دولة فى أن تعيش، فإن تأييد أميركا المستمر لإسرائيل يجعل العرب هم المهددين وليس العكس، أما بالنسبة لنص قرار مجلس الأمن على حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية ومنها قناة السويس، فقد قرر جمال عبد الناصر فى هذا الاجتماع المغلق موقف مصر قائلا: أننا «نربط هذا باللاجئين (الفلسطينيين) وخصوصا أن الاثنين جايين فى فقرة واحدة، فإذا حلت مشكلة اللاجئين تحل مشكلة قناة السويس، لأنه تبقى المشكلة كلها أتحلت ويبقى الفلسطينيون لهم الحق فى أن يعودوا إلى بلدهم».

وعن الموقف العسكرى على جبهة القتال قال جمال عبد الناصر أننا: «استكملنا الدفاع ولكن لم نستكمل مقومات الهجوم» وهذا سيتطلب وقتا وجهدا.

□□□